مواد الرسم والنحت في العصر الحجري القديم (المحاضرة ٢)

م. م. رويدة وعدالله محمد

يقصد بمواد الرسم والنحت الخامات الأساسية التي استعملها الإنسان القديم في تنفيذ اعماله الفنية ، وكذلك الآلات والأدوات التي صنعها وكيفية استخدامها في تنفيذ نتاجاته الفنية من رسوم ومنحوتات . وكانت أغلبها من الطبيعة ويقوم بإجراء بعض التحويرات عليها. كانت جدران الكهوف وسقوفها أفضل أوراق الرسم والواح الحجر لدى رسامي ونحاتي العصر الحجري القديم وكانت تترك على وضعيتها الطبيعية حيث تنفذ الرسوم والمنحوتات البارزة عليها مباشرة دون أي إصلاح أوتحرير أو تحسين يجري عليها بوصفها أرضية للمشاهد، فكانت تتوزع بشكل فوضوي لتشمل أكبرمساحة من جدران الكهوف وسقوفها. وكانت بعض المشاهد المرسومة تظهر في أماكن عميقة في الكهوف وعالية على الجدران.

ونفذ أعماله كذلك على عظام الحيوانات وقرونها وانيابها العاجية، وبخصوص المواد الخام التي أُستعملت في التلوين فأخذت من الطبيعة وتميزت بثباتها وما تزال جدران الكهوف تحتفظ بلوحات ملونة رسمها اقدم فناني التاريخ قبل عشرات الألاف من السنين، وكان أكثر الألوان استعمالاً في التلوين اللون الأحمر والأسود، انتج اللون الأحمر من تربة اوكسيدية تحتوي على نسبة عالية من اوكسيد الحديد تعرف بالمغرة الحمراء وحجر الدم ودماء الحيوانات بعد قتلها . اما اللون الأسود فيحتمل انه ناتج من فحم الخشب ونوعية من التربة تحتوي على نسبة عالية من خامات المنغنيز وعظام الحيوانات بعد حرقها . وكان تحضير الصبغة يتم بمزج المادة الخام بشحم الحيوانات ومواد زلالية اخرى في تماسك هذه المواد الممزوجة وترابطها ولعل الإنسان القديم استخدم الماء في تخفيف الصبغة لجعلها صالحة للرسم، وتختلف درجة هذه الألوان نسبة إلى نسبة الكمية المذابة منها بالماء وعلى مدى تعرضها للضوء والحرارة والرطوبة والهواء داخل الكهف، ولذلك تنوعت الألوان منها بين الأسود والأحمر والبني الغامق والبني الفاتح والأسمر.

وبالنسبة للأدوات والألات التي نفذ بها الفنان رسومه ومنحوتاته وقتها، فبالنسبة للرسم لا نملك أدلة مؤكدة لتحديد الأداة، ولكن من المحتمل أنه استخدم أصابع اليد وجلود الحيوانات ذات الفراء أو حزمة من شعر الحيوانات وربما ريش الطيور بمثابة الفرشاة في إنجاز رسومه، أما في النحت فهناك أدوات خاصة صنع بعضها من الأحجار وبعضها الأخر من

العظام، وقد عثر على مجموعات منها في الكهوف والمواقع القديمة مثل منطقة الدورون في فرنسا.

موضوعات الرسوم والمنحوتات

كانت متدرجة الخطوات في التطور والنضوج من ناحيتي الأسلوب والموضوع ويتفق ذلك مع تطوره العقلي والحضاري من جهة ومع تزايد خبراته وتجاربه في الفن وممارسته من جهة اخرى ، وكان متفاعلا تفاعلا قويا مع بيئته ومحيطه.

موضوعات الرسوم

١- كانت بدايتها بسيطة ولم تتعد كونها عدد من الخطوط المنحنية رتبت بأوضاع عشوائية مشوشة لتؤلف أشكالاً يصعب التكهن بطبيعتها، ومن المحتمل أن فنان الكهوف قد خط على الأرض بقطعة من أغصان الأشجار أو بأداة من الحجارة من أدواته التي كان يستعملها في حياته اليومية بخطوط عفوية، وكان أصلها رسوم خططها في مخيلته دفعته الى إعادة تخطيطها مرات عديدة، ومن اقدم الموضوعات التي نفذها اشكال الكف البشرية، ويبدو أن الإنسان قد شاهد طبعة كفه الملوثة بدماء الحيوانات التي تم اصطيادها على جدران الكهوف مما جلب إنتباهه إلى تكرار تلك العملية، هكذا كانت البدايات لظهور فن الرسم بسيطة تقوم على التجربة والمحاكاة وكان للصدفة وتكرار العمليات وتقليدها دور كبير في تطورها.

تعد الأشكال الحيوانية من ابرز الموضوعات التي تناولها رسام الكهوف في رسمه، لا سيما تلك التي عاصرته وعاش بقربها والتي كانت تمثل أهم كائن في حياته حيث شغل حيزاً كبيراً في تفكيره وخياله، كان بعض الحيوانات جميلاً في نظره، وكان بعضها مخيفاً يهدده بالفناء سواء أكان ذلك عن طريق مداهمته الإنسان وقتله، أم في عدم تمكن الإنسان من صيد تلك الحيوانات التي تعد المصدر الرئيسي في قوته فهي بذلك كانت من أهم عوامل بقائه واستمراره وذلك يبين أن تفكير الإنسان في هذا العصر كان محصورا بتلك المخلوقات الحية الجميلة المفزعة والمفيدة معا

وكان أشهر تلك الحيوانات الغزال بأنواعه والثور الوحشي(البيزون) والفيلة ذات الصوف(الماموث) وكذلك الدببة والذئاب والثعالب والأرانب والكركدن والخيول والأبقار بالإضافة إلى القليل من الضباع والأسماك والطيور، وتنوعت أوضاعها وحركاتها بحسب حالتها النفسية والأوضاع الطبيعية لتلك الحيوانات، فيوجد منها في رسم واحد مجموعة من الحيوانات من فصائل مختلفة وبوضعيات خاصة، كان الفنان ناجحاً

ومجيداً في نقل في نقل صور الحيوانات التي عاشت بالقرب منه، كان الفنان بذلك ينقل لنا وبشكل معبر حقيقي يعتمد على الصورة التي تنقلها العين المجردة لأشكال الحيوانات بأشكال وأوضاع وفعاليات متنوعة، مرة في حالة الركض هرباً من خطر الإنسان، ورماح الصيد في أجسامها ومرة في وضع الإضطجاع الهادئ أو الوقوف الحذر، وكان إعتماد الفنان في إبراز الحالات النفسية للحيوانات على أعضاء الرأس والأطراف وتحريكها على وفق الحالة التي يريدها، كالهيجان والتأهب للهجوم أو الفزع أو الهروب وتمثلت كذلك في حالات الهدوء واقفة أو مضطجعة وكانت هناك حالات أُخرى.

كان توزيع رسوم الحيوانات مبعثر غير منتظم، فكان لا يعرف شئ عن الإنشاء التصويري المتجانس كما كان يجهل إستغلا ملئ الأرضات التي نفذ عليها عمله، فرسم كل كتلة مستقلة بذاتها ليس لها علاقة مع الكتل الأُخرى المجاورة لها على نفس الجدار، فعند رسمه حيوان بفاعلية معينة كان يرسم حيوان آخر بالقرب منه بفاعلية مختلفة دون وجود علاقة بين الوضعيتين من ناحية الموضوع، وكانت أجمل رسوم الحيوانات كانت في كهوف فرنسا بمنطقة الدورون في كهوف التاميرا بأسبانيا.

يلي موضوع الرسوم الحيوانية في الأهمية الأشكال البشرية التي وجدت أفضل نماذجها في كهوف فرنسا وأسبانيا، وكان معظمها يمثل الرجال والقليل منها يمثل النساء والأطفال وتميزت بصغر حجمها وبأسلوب بعيد عن الواقعية بأستخدام عدد من الخطوط البسيطة، فتميز الرأس بصغره ذو بروز أمامي أشبه برأس الطير، أما الجذع فرُسم بشكل مثلث رأسه إلى الأسفل، بينما حددت الأيدي والأرجل بخطوط بسيطة فقط ولعل ذلك يعود إلى إختلاف الدوافع التي كانت وراء رسمه كُل من الأشكال الحيوانية والبشرية، فرسمت الأشكال البشرية في وضعية الصيد للحيوانات الذي عُد الهدف الأساسي لهذا الرسم، وضهرت وضعيات الإنسان أحياناً بوضعية جيدة مثلاً عند رسمه الإنسان يطارد عدد من الحيوانات ووربما أدى تلك الفعالية الشاقة عدة مرات في اليوم الواحد، ومثل تلك الرسوم ما مثلت الإنسان بمفرده أو بهيئة مجاميع يحمل سلاحه(القوس، السهم) وهو يلاحق بكل ما أوتي من قوة بعدد من الحيوانات وبذلك تجسدت حركات الإنسان بشكل قريب من الواقع لا يخلو من رشاقة الحركات وقوة التعبير.

مواضيع النحت البارز

تنوعت أعمال النحت التي خلفها رسام الكهوف بين منحوتات بارزة وأُخرى مجسمة، ويبدو لنا من إستعراض مواضيع هذه المنحوتات ما يلي:-

١- اغلبها كان قد ظهر في الرسوم الملونة التي شملت اشكال بشرية وحيوانية ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى تشابه الدوافع من وراء العمل الفني، والإختلاف يكمن في طرقة أسلوب التنفيذ. ويظهر من تتبع أقدم مخلفات الإنسان الفنية في النحت البارز أنه سار على خط واحد مع فن الرسم في أول ظهور لهما، فقد كانا فنين مندمجين أو متكاملين مع بعضهما ثم افترقا، والدليل على ذلك أ ن أقدم المنحوتات البارزة كانت قد تمت بطريقة نحت أو حفر الخطوط الخارجية الرئيسية للأشكال ثم إتمام العمل بطريقة الرسم وذلك بإستخدام اللون كما توضح ذلك بإستخدام اللون كما توضح ذلك أمثلة كثيرة في الكهوف الفرنسية.

بعدها إتجه فنان النحت البارز إلى التخلص من هذه الإزدواجية، وأخذ كُل من النحت والرسم ينعزل عن الآخر، وسار النحت متطوراً من طريقة الحفر إلى النحت البارز العالي ثُم ظهرت بعدها المنحوتات المجسمة في أواخر العصر الحجري القديم.

٢- نفذ فنان النحت البارز مواضيعه على مواد مختلفة ، كجدران الكهوف والملاجئ الصخرية وعظام الحيوانات وقرونها

وانيابها. ومن أشهر نماذج النحت البارز التي نفذت على جدران الكهوف الحجرية كان كهف ايبو(Ebbu) في منطقة الرون في فرنسا حيث نجد أن افريزاً من النحت البارز يبلغ طوله (٧١) يارد، وعرضه (١٦) يارد، مثلث فيه مجموعة من حيوانات البيزون والخيول والماعز.

وأجمل نماذج النحت البارز التي نفذت على العظام قد ظهرت في الكهوف الفرنسية، ومنها مثلاً نحت على ناب ماموث يمثل ماموث بحالة تهيج وفزع. وعلى عظم نسر نفذ النحات موضوعاً يمثل مشهد لقطيع من غزال الرئة، وعلى ضلع حصان نحت الفنان موضوعاً يمثل مشهد عراك بين حيواني بيزون.

بالإضافة للأشكال الحيوانية، كان فنان النحت البارز بارعاً في تمثيل الأشكال الأدمية ومن أجمل نماذج هذا النوع جاءتنا من كهف لامجدولين في فرنسا، فعلى جدران الكهف المذكور نحت إمرأة عارية في وضعية

الإضطجاع، نفذ الشكل بأسلوب بسيط يعتمد على تحديد الخطوط الخارجية وحفرها فقط، ومع ذلك فيه جمالية بديعة تشبه المرونة في التخطيط والنقل الواقعي الصادق وقوة التعبير التي نفذها فنان ذلك العصر على الكهوف.

النحت المجسم

نفذ الفنان اعماله في النحت المجسم على كتل صلبة من الأحجار الطبيعية والعظام والعاج والطين في تشكيل العديد من التماثيل الحيوانية والبشرية. ومن أشهرها:-

١- تماثيل حيوانية صغيرة ومن أشهرها تمثال دب معمول من الطين طرفاه الأماميان امتدا إلى الأمام وطرفاه الخلفيان إلى الأعلى تحت البطن.

٢- تماثيل بشرية اغلبها مثلت النساء تتضمن معنى التوالد اصطلح على تسميتها (تماثيل الآلهة الأم). واتخذ بعد ذلك رمزا الى التكاثر والخصب والولادة.